الفصل الثاني

السعوديون والركن الثاني

الوقفة الأولى:

الفوائد

من الميزات التي نعيشها، في عيدنا الأسبوعي، المتمثِّل في يوم الجمعة، الإنصات إلى الخطيب، وهو يضع مكانته العلمية والشرعية بين يدي السامعين له من المصلِّين، الذين قدموا إلى مساجد الجمعة متهيئين مبكِّرين، قصدًا إلى سماع شيء مفيد، علمًا وعظة وتذكيرًا.

هناك أئمة لمساجد الجمعة يغوصون في أمَّهات الكتب المعتبرة لدى المسلمين، يستخرجون منها الحِكَم والآثار، التي تزيد من ربط المؤمنين بإسلامهم، وتعينهم على التزوُّد من الإيمان، بفعل الطاعات وترك المعاصي. وكلَّما غاص الإمام في هذه المصادر خرج على المصلِّين بالدرر التي تحكي معايشة السلف معايشةً واقعية، فيكون هؤلاء الأشخاص أمثلةً حيَّةً لما كان عليه أولئك القوم، من تسابُق إلى الخير. وعليه فإنه لا يكفي من الإمام – فيما يبدو – الاكتفاء بالجانب النظري في طرح الموعظة على السامعين، ذلك أن هذا الوقت مؤاتٍ جدًا لكسب القلوب، التي جاءت وقد تهيأت لسماع الموعظة المؤثِّرة، التي يُرجى لها أن تحدث تغييرًا في حياة المسلم. وإن لم تتمكَّن من إحداث التغيير، فإنها ستسعى إلى التثبيت، والإصرار على الاستمرار في الخير.

في المقابل نجد أن هناك أئمةً يقودون الناس، يوم الجمعة، بخطبة غير مركّزة، وليست محدَّدة في علاج موضوع واحد، بل ربَّما غطَّى الخطيب فيها موضوعات عدَّة، فتداخلت الموضوعات مع بعضها البعض، فضاعت لدى المتلقّي. وربَّما عمد بعض الخطباء إلى تغطية التقصير الذي يتَّسمون به في عدم التحضير المناسب للخطبة، باللجوء إلى أساليب غير متلائمة مع المستوى الثقافي للمصلّين، وربَّما اتُّبعت أساليب الزجر والنهر والترهيب، وكثير من جلد الذات، بدلاً من الترغيب وترقيق القلوب. والله تعالى عندما أرسل نبيه موسى – عليه السلام – وجعل أخاه هارون وزيرًا له أمرهما – عزَّ وجلَّ – أن يتعاملا مع فرعون في دعوته بالقول الهيِّن، وهو فرعون، الذي ادَّعى أنه ربُّ قومه الأعلى، وسعى إلى بناء صرح، ليطَّلع إلى إله موسى.

الخطباء في أنحاء العالم الإسلامي يدركون هذا البعد الدعوي نظريًا، ولكن بعضهم ربَّما يأخذه الحماس، فيخرج عن الطور، ويجعل منبر رسول الله ﷺ أداة للتنفيس، ويجعل من المصلّين مجالاً للُّوم والتقريع، وكأنهم هم المسؤولون المباشرون عن التقصير الذي يتحدَّث عنه الإمام. ويذكّرني هذا بإمام أحد المساجد الذي ينصح المصلّين في صلاة الفجر بأن يصلُّوا الفجر! ينصحهم بصلاة الفجر، وهم أمامه يصلُّون الفجر، بل إن منهم من جاء إلى المسجد مبكّرًا يصلي قبل دخول الإمام وقبل الفجر.

إن خطبة الجمعة اليوم، وقبل اليوم، فرصة مواتية للتأثير على الناس وتثبيتهم، وبالتالي، ومع تنامي الوعي عند الناس، فلابدَّ أن

تكون مركّزة على جزئية صغيرة، ولكنها مهمّة جدًا، مع الاختصار غير المخلّ. فإن قِصَر خطبة الإمام وطول صلاته في يوم الجمعة علامة "مئنّة" على فقهه، كما هو مضمون حديث المصطفى محمّد بن عبدالله ﷺ،[1] مما هو معلوم أيضًا، لدى الخطباء، إلا أن بعضهم – هدانا الله وإياهم – يتعاملون مع هذا الحديث تعاملاً نظريًا. وإذا لم يكن إمام مسجد الجماعة، وإمام المسجد الجامع وخطيبه، قدوةً في هذا المجال فإن القدرة على التأثير ستكون محدودة جدًا.

* * *

(١) ونصُّ الحديث: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنّة من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة، وإن من البيان لسحرًا». رواه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة. حديث رقم ١٤٣٧.

الوقفة الثانية:

المسجد

جاء المؤتمر العالمي التاسع عشر للمجلس العالمي للمساجد الذي عقد في رحاب رابطة العالم الإسلامي بمكّة المكرَّمة، برعاية كريمة من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى – في وقت تمرُّ فيه الأُمَّة جميعًا بحالة غير عادية، فكان أن وجَّه المؤتمر نداءً إلى فئات مؤثِّرة في المجتمع المسلم للتعامُل مع هذه الحالة، غير العادية، بقدر عالٍ من الحذر، والمعالجة الحقَّة القائمة على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى وسنة رسوله سيِّدنا محمَّد بن عبدالله ﷺ، دون إفراط في الفهم أو تفريط، على ما فهمه عليه سلف هذه الأُمَّة، الذين أبرزوا روح التسامُح في الإسلام بين المسلمين ومع غير المسلمين، داخل المجتمع المسلم وخارجه، مما يدخل في مفهوم السياسة الشرعية، بما فيها العلاقات الدولية في مفهومات هذا العصر.

من الفئات المؤثِّرة في المجتمع أولئك الرجال الذين يرقون منبر محمَّد بن عبدالله ﷺ، سيِّد الأوَّلين والآخرين، في الأسبوع الواحد مرَّة واحدة على الأقل، عندما يجتمع المسلمون لصلاة الجمعة، وقد تهيَّأوا مظهرًا ومخبرًا، ليقولوا ما يرون أنه الصواب، وما يبرئ ذممهم أمام الله تعالى. وهو نداء جاء في وقته، رغم أن كل الأوقات وقت لهذا النداء، بحيث يسهم هؤلاء الرجال في قيادة المجتمع إلى

الخير والطمأنينة، وينشرون مقوِّمات الأمان في النفوس والأبدان، وإنها لمسؤولية عظيمة.

يعجبني في هذا المقام الطرح الصادر عن عالِم مدرك يفقه المسؤولية الملقاة على عاتق هؤلاء الرجال، كما يدرك كيف كانت خطبة سيِّدنا محمَّد بن عبدالله ﷺ في أيام الجمع، وغير أيام الجمع في المناسبات التي تستدعي أن يقف عليه الصلاة والسلام هاديًا وبشيرًا. وفي قمة هذه الوقفات، وكلها قمم، خطبة الوداع التي تحتاج إلى الاستعادة دائمًا، وكلما ران على القلوب ما يجرُّها إلى قدر من الغلوِّ في الدين، أو التفريط فيه، فكلا الأمرين شطط، وكلاهما فعل متعدٍّ، لا يقتصر على صاحبه، ولكنه يتعدَّى إلى الآخرين.

مع كثرة المنابر الدالَّة على كثرة المصلين، الدالَّة على زيادة التوجُّه إلى الدين، تزداد المسؤولية على كل إمام وخطيب، لاسيَّما أن هذه الجوامع، ولله الحمد، ليست كدور العبادة في ملل ونحل أخرى، لها انتماءاتها الخاصَّة، إذ إن المسجد بيت من بيوت الله، لا يخص فئة دون أخرى، وبالتالي فكل مسلم يتردَّد على هذه المساجد – دون تصنيف – فيتوقَّع المزيد من نداءات الهداية، ولذا كان من المهم أن يكون لهؤلاء الأئمة والخطباء مراجع تعينهم – بعد عون الله تعالى – على تلمُّس الطريق الصحيح في إيصال الرسالة للمصلين، ومرَّة أخرى على نهج رسول الله ﷺ دون زيادة مخلَّة، أو نقصٍ بتقصير.

لأن هـؤلاء الأئمـة والخطبـاء يعيـشون المـسؤولية تجـدهم في وعظهم يحرصون على أن يزرعوا في النفوس والأفئدة فائدة، مهما كانت هذه الفائدة في مقياس الأفراد قليلة، إذ إن المهم أن يخرج المصلي، سامع الخطبة، بشيء من هذه المناسبة المباركة، وتسمع نقاشًا أحيانًا عن خطبة فلان، وما سبقها من تحضير لها، وما صاحبها من إخلاص في طرحها. ولهذا كان لهؤلاء الرجال تأثير، وكانت المسؤولية عليهم عظيمة أمام الله تعالى ثم أمام المصلين، أن يوظّفوا هذه المناسبة المباركة، فيما يعود على المجتمع العام والخاص بالخير. وهذا هو المتوقّع المأمول.

لست أعيد طرح رسالة المسجد، بقدر ما يتأكّد الحديث عن هذه الرسالة، في ضوء الأحداث غير العادية التي تمرُّ بها الأُمَّة هذه الأيام، مما يستدعي مزيدًا من الوعي والإدراك وإبراز خطورة الكلمة في هذا الزمن العصيب، لاسيَّما أن في النفوس قابليةً لسماع كلمة من متكلّم هو محلُّ الثقة.

* * *

الوقفة الثالثة:

خصوصية الرسالة

من أجمل ما يقضيه المرء من وقته أن ينصت لخطيب صلاة الجمعة، الذي رزقه الله علمًا وفقهًا، فتراه يسيح به في محيط المعرفة الشرعية، يستنبط الحكم من الأحكام. وكلما كان الخطيب عالمًا كان أقرب إلى استنباط الحكمة، وكلما كان العالم فقيهًا كان أقرب من العالم في الوصول إلى الحكمة والله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة ٢٦٩).

تخرج بفائدة عندما تجلس أمام خطيب عالم فقيه، ينظر إلى الدين نظرة ذلك العالم الفقيه، الذي يأخذ من الأوَّلين والآخرين، من السلف والخلف، فهو يبحث عن الحكمة، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها.[1] ولكنه لا يقبل كل ما جاء به السلف، ومن باب أولى فهو لا يقبل كل ما يسطِّره الخلف، ولكنه يقيس ذلك على الكتاب والسنة، وينظر إلى ما يقال في مقياس

---

(١) قال ناصر الدين الألباني في: ضعيف سنن ابن ماجه (رقم: ٩١٢): «إن هذا الحديث ضعيف جدًا».

فهمه للآيات والحديث، ولذا تراه يردُّ على الأوَّلين والآخرين، ولكن ردَّه هو ردُّ العلماء الفقهاء، فلا يشتم، ولا يسبُّ، ولا يسفِّه الآراء، ولا ينتقص قائليها، ولكنه ربَّما يعتب عليهم، إذا لم يطبِّقوا على الأخبار معيار العلماء والفقهاء، المستلهم من علم الكتاب والسنة. ويعتب عليهم، ولكنه يجلُّهم ويوقِّرهم، بل ويحذِّر من أن يساء الفهم حولهم لمجرَّد أنه يردُّ عليهم.

هذا الخطيب، وأمثاله، تحرص عليهم، وتسرع إليهم، وتتهيّأ لهم بالبكور إلى الجامع، تأخذ مكانك بعد السنن والنوافل وقراءة القرآن الكريم، وهكذا ينبغي الحضور إلى صلاة الجمعة، بل ربَّما سافرت إليهم، من شمال المدينة إلى جنوبها، أو من شرقها إلى غربها، ليس لأنه يخاطب عاطفتك، ويجيِّش المشاعر لديك، بحيث تنسى كل ما قيل، أو جله، بمجرَّد مغادرتك الجامع، ولكن لأنه يمنحك علمًا، ويعينك، بعد عون الله لك، أن تزداد إيمانًا وتقوى، وأن تفهم الحياة بمنظور شرعي، يجعلك تأخذ منها وتذر، وتبني ولا تهدم، وتزرع ليحصد غيرك في الدنيا، وتحصد أنت في الآخرة، وهكذا ينبغي أن يكون خطيب الجمعة.

كان خطيب الجمعة، الذي أتردَّد على جامعه، قد تحدَّث عن عصمة الأنبياء، فجعل العصمة التي منحها الله إياهم؛ لأنهم من المخلَصين الذين عجز عنهم الشيطان، فاستثناهم من الغواية، ولأنهم أصحاب رسالة، وهم قدوة وأسوة حسنة بنصِّ الكتاب والسنَّة، ولذا يأتي هنا النقل والعقل، ليردَّ عنهم الهنات والسقطات، التي يقع بها سائر البشر.

من هنا حُقَّ للإمام أن يعتب على ابن جرير الطبري والبغوي في تفسيرهما، عندما استسلما – رحمة الله عليهما – للأخبار الواردة عن اليهود، التي اصطلح على تسميتها بالإسرائيليات،[1] فأوردوها دون أن يعلّقوا عليها أو ينفوها، ذلك أن منطلقها غير سليم، وغايتها غير نبيلة، ويكفي أنها قد وردت عن اليهود بحقِّ الأنبياء، في الوقت الذي علم فيه موقف اليهود من الأنبياء، فهم لم يكذبوا عليهم، ويلفقوا لهم التهم، ويلحقوا بهم النقائص فحسب، ولكنهم سعوا إلى قتلهم، وقتلوا بعضهم!

لذا كان لزامًا على المفسِّرين الأوائل والأواخر أن يتحقّقوا من الروايات ويحقّقوها، فيأخذوا منها المعقول من المنقول، ويردُّوا منها غير المعقول وغير المنقول، لاسيَّما إذا كانت تدعو إلى منقصة، أو تحرِّض على معصية، أو تعين على سوء فهم.

يتَّضح هذا جليًا في الأخبار الواردة عن الأنبياء، القائمة على تفسير آيات بيِّنات، فتُفسَّر خلاف المراد، وتحمَّل ما لا تحتمل، مما جعل كتَّاب العصر من المستشرقين، ومن تأثَّر بهم، يعتمدون عليها في أخبارهم المغرضة، ويعيدون القارئ إلى الأئمة من المفسِّرين والمؤرِّخين، بل، ربَّما، بعض علماء الشرع والدين الآخرين، فيأخذوا منهم ما أخذوه هم من الإسرائيليات، ونواتهم المشهورة سلمان رشدي، ثم أنور شيخ، ثم من سبقهم، ومن سيلحقهم، من

---

(١) انظر: محمد سعيد العشماوي. إسلاميات وإسرائيليات. – القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩م. – ٢٣٦ ص.

أولئك الذين يسعون إلى تشويه الدين وأنبياء الله ورسله، لاسيَّما في الأمور الشخصية، التي تورد على أنها أخبار، ولكنها تتنافى عندنا مع العصمة.

العصمة للأنبياء، ولذا، ولأنهم معصومون، فيؤخذ منهم كل شيء على أنه من السنة، ومعنى هذا أنه يؤخذ منهم في قولهم وفعلهم وتقريرهم، وعليه، فإنهم لن يفعلوا شيئًا لا يمكن الأخذ به، وإلا لما كانوا قدوة لنا وأسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا، وبالتالي لن يتركوا شيئًا فيه مصلحة للأتباع، دون أن يدلُّوا عليه، وعليه، فإن ممارساتهم البشرية تدخل في إطار المثالية الواقعية القابلة للتطبيق، ويقلُّ كثيرًا، إن لم ينعدم، جانب الخصوصية في الأفعال. ومن المهمِّ التوكيد على ذلك؛ لأن الحديث كثُر، اليوم، في عزو بعض الأفعال التي جاءت عن المصطفى – عليه الصلاة والسلام – بالخصوصية الشخصية والمكانية والزمانية. ولأهل العلم في هذا تفصيل طيب.

من هذا المنطلق فإنه لا يعقل عندنا أن تكون هناك تصرُّفات غير مقبولة من أي نبي، وبالتالي من الرسول محمَّد بن عبدالله ﷺ. ويردُّ العالمون، بناء على هذه القاعدة، على المفسِّرين الذين وقفوا عند الآيات التي تعالج زواج الرسول – عليه الصلاة والسلام – من زينب، بعد أن تركها زيد. ويردُّون على المفسرين الذين نقلوا عن الأخبار الإسرائيلية رغبات غير معقولة من نبي في هذا المجال.[1]

---

(١) انظر: زاهر بن عوَّاض الألمعي. مع المفسِّرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ =

يصدق هذا على قصَّة يوسف – عليه السلام – مع امرأة العزيز التي شغفها يوسف حبًا، فحاولت به وهمَّت به، ولكنه رأى برهان ربه، فلم يهمَّ بها، ولو لم يرَ برهان ربه لربَّما همَّ بها، من باب حديث النفس، ولكنه استعصم، فكادت له امرأة العزيز كيدًا عظيمًا، وشهد شاهد من أهلها. ويوضِّح الشيخ الشنقيطي – عليه رحمة الله – هذه النقطة توضيحًا دقيقًا ترسيخًا لمفهوم العصمة.

يعدُّ من هذا أيضا قصة داود – عليه الصلاة السلام – الذي افتُري عليه في زوج أحد الجند بأنه رأى الزوجة تغتسل في سطح المنزل فأرادها، ولكنه قبل إن يصل إليها أرسل زوجها للجهاد، وأوعز إلى قائد الجند أن يجعله في المقدِّمة؛ رغبة في موته، ثم الحصول على زوجته. والحديث هنا عن نبي معصوم لا يليق منه، ولا يعقل أن تكون هذه الألاعيب الرخيصة الهابطة القائمة على المكيدة مما يتَّصف به رسول معصوم.

مثل هذا ما ذكره القرآن الكريم من أن امرأة نوح وامرأة لوط – عليهما السلام – كانتا تحت ذمة عبدين صالحين من عباد الله فخانتاهما. وهنا يأتي الإسقاط، فتفهم الخيانة على أنها الخيانة الزوجية، وهذا غير وارد في حق الأنبياء، تكريمًا لهم من الله تعالى، فلا يمكن أن تحصل من زوجاتهم خيانة زوجية،

=

بزينب بنت جحش: دراسة تحليلية. – ط ٤. – الرياض: المؤلِّف، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. – ١٢٧ ص.

ولكنهما خانتاهما بعدم إيمانهما بهما، وبعدم وقوفهما معهما في المحن والابتلاءات التي مرَّا بها، ومرَّ بها غيرهما من الرسل والأنبياء. ويدخل في هذا المفهوم حديث الإفك.

هكذا تقتضي العصمة، وهي نوعٌ من الخصوصية، للأنبياء أن يكونوا منزَّهين عن هذه الشطحات، التي يندر أن تحصل من المؤمنين، ناهيك أن تحصل من الأنبياء والرسل، مهما جاءت بعض التفسيرات من بعض المفسِّرين بذكر الروايات التي تُردُّ على أصحابها، على اعتبار أن شرعنا يقول في معرض الموقف من الأخبار والروايات: إن كلاً يؤخذ من كلامه ويردُّ إلا المعصوم محمَّد بن عبدالله ﷺ فيؤخذ كلامه ولا يردُّ، لا كله ولا بعضه.[1]

إذا تبيَّن أن الأنبياء معصومون، وأن العصمة من سماتهم، التي جعلها الله فيهم، تشريفاً وتكريمًا، ليكونوا حقًّا قدوة وأسوة، فإن هذه العصمة إنما تنفي عنهم الزلل، من ناحية، وتوجب قبول ما أتوا به والانتهاء عما نهوا عنه، لاسيَّما في حالنا نحن مع ما جاء عن سيِّدنا رسول الله محمَّد بن عبدالله ﷺ على اعتبار أنه خاتم الأنبياء، جاء بخاتمة الرسالات، وأُنزل عليه خاتم الكتب، فلا نبي ولا رسالة ولا

---

(١) يؤثر هذا القول عن عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – ، ونقلها عنه مجاهد – رحمه الله – ، ونقلها عن مجاهد الإمام مالك بن أنس – رحمه الله – ونقلها عن مالك الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله –. انظر: محمَّد ناصر الدين الألباني. صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم، كأنك تراها. – ط ١٣. – بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. – ص ٢٦ – ٢٧.

كتاب بعد رسالة المصطفى – عليه الصلاة والسلام –. والإيمان بمبدأ العصمة يعين كثيرًا في عدم قبول ما يحاك حول المصطفى ﷺ من أخبار، يراد منها انتقاص الرسالة. وهذا كله أثاره ذلك الخطيب الذي علم ما يقول، وفَقِهَ ما يريد أن يقول.

* * *

الوقفة الرابعة

خصوصية العلماء

أمَا وقد استقرَّ في الذهن، ووقر في الصدر، وصدَّق العمل، أن الأنبياء معصومون من الخطأ والزلل، بعيدون عن ملذات الدنيا وشهواتها، غير المشروعة، منزَّهون عن المطامع الشخصية، والمؤامرات المحاكة، والخدع الرخيصة والغالية، فإنه يستقرُّ في الذهن، ويقرُّ في الصدر، ويصدِّق العمل، اعتبار غيرهم من الأئمة والعلماء والرجال من القيادات العلمية والفكرية والسياسة، وغيرهم كلهم، غيرَ معصومين، يقع منهم الزلل، ويعتريهم الخطأ، ولكنهم ليسوا، بالضرورة، عرضة للمطامع الشخصية، والمؤامرات المُحاكة، والخدع الرخيصة، لأنهم حينئذ يفقدون مقاماتهم بين الناس، ذلك أنهم ومع أنهم غير معصومين، إلا أنهم يعدُّون ورثة الأنبياء، وبالتالي فإنه ينظر إليهم على أنهم حملة الأمانة والقدوة بين الناس. هذا بخلاف بعض الثقافات الأخرى القائمة على الدين، التي تعتقد العصمة لمن تولَّوا القيادة الدينية في زمانهم.[1]

---

(١) «في مجمع الفاتيكان الأول ١٨٦٩ فرض معصومية البابا من الخطأ؛ لأن البابا يوحى إليه من مباشرة من الروح القدس عند الحاجة». وجاء هذا القرار بأثر رجعي. انظر: معصومية البابا من الخطأ. — ص ٣٤.

في: زينب عبدالعزيز. الإلحاد وأسبابه: الصفحة السوداء للكنيسة. —

=

لكن هذه القدوة لا تعني الكمال، فالكمال كله لله تعالى، ولكنها تعني، بالضرورة، أنهم معرَّضون للأخطاء في تفكيرهم، وفي فهمهم، وفي تفسيرهم للأحداث والنصوص. ولا يستثنى من هذا أعلام أفاضل من أعلام الأُمَّة ممن تصدَّر للنصوص الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يفسِّرونها، ويبحثون عن الدلائل والموثِّقات التي تعين على فهم النصوص.

هذا ليس جديدًا علينا من حيث الفهم والاعتقاد، ولكن الذي يبدو أنه إذا وجدت زلَّة من عالم، عند بعض من يتصوَّرون منه العصمة، أو عند بعض المتربِّصين، مسحت جهوده كلها؛ لأنه وقع في هذا الخطأ أو ذاك. وربَّما كتبت عنه الرسائل، وألقيت فيه الدروس، وحُذِّر الناس منه ومن علمه، لأنه وقع في الصفحة كذا من المجلد كذا من عشرين مجلدًا، هي كتاب واحد من مئة كتاب ورسالة، كتبها هذا العالم أو ذاك.

صحيح أنه يقال إن من ألَّف فقد استهدف، ولكن الاستهداف هذا نوع من الاعتراف الضمني بتعرُّض المؤلف للخطأ والزلل، ولكن الاستهداف هذا أيضًا يعني النقد والمؤاخذة والردَّ على المؤلِّف العالِم، بروح علمية موضوعية، تحفظ لأهل الفضل فضلهم، ولا تنقص أخطاؤهم من قدرهم. ولذا فلا داعي للبحث

=

دمشق: دار الكتاب، ٢٠٠٤م. — ٢٠٠ ص. — (سلسلة صليبية الغرب وحضارته؛ ٢).

عن عورات العلماء، وتقصِّي أخطائهم، وإن كبرت في عيون بعض الناس. والأدب معهم يفرض الدعاء لهم بالمغفرة والعفو.

الحق أنه من هذا المنطلق، "منطلق العصمة للأنبياء"، وانتفائها عن غيرهم، قد يرتاح المرء إذا ما وقع على خطأ في كتابٍ أنفق عليه صاحبه سنين طويلة، وسهر الليالي في الخروج بهذا التراث العلمي الذي لا نزال ننهل منه، وسنظل كذلك إلى أن يشاء الله تعالى.

ربَّما قيل إن الانشغال بهفوات العلماء، على ما فيه من تقليل من شأنهم، وبالتالي الإعراض عنهم، فإنه انشغال على حساب الانشغال بالعلم، وتنوير الناس ونقلهم من الفاضل إلى الأفضل، والاهتمام بقضاياهم وقياسها بالقياس الشرعي، ونشر الوعي الديني بينهم، الأمر الذي تحتاجه جميع المجتمعات، التي لا تأبه كثيرًا إلى الانشغال بالهفوات، إلا بالقدر الذي ينزع الثقة من السلف، فيعمد الناس إلى البحث عن علماء، لا يسلمون من ألسِنة المشتغلين بالهفوات وأقلامهم.

لعلَّه لا يُفهم من هذا كله تقديس هؤلاء العلماء، فمقدِّمة هذه الوقفة تنفي ذلك، وتحذِّر منه، والنظرة الوسطية كفيلة بأن تريح العباد، الراحل منهم والباقي، إلا من اتَّضح منه أمور لا يُصبر عليها من المضلِّلات، فإن هذا لا يدخل في المقصود من هذه الوقفة.

* * *

الوقفة الخامسة:

بناء المساجد

استنادًا إلى آراء العلماء الأفاضل وفتاواهم، المبنية على الابتعاد عن الإزعاج الذي تحدثه مكبِّرات الصوت في المساجد، أجدها مناسبة للدعوة إلى التقليل من بناء المساجد في المدن الكبرى، وتوجيه الجهود إلى بنائها في المدن الصغيرة والقرى والأرياف. وإن مسجدًا يبنى في مدينة كبيرة يمكن أن يبنى فيه ثلاثة مساجد صغيرة، في تلك القرى والأرياف والمدن الصغيرة.

ولقرب مساجد المدن من بعضها، وإصرار بعض الأئمة على رفع مكبِّرات الصوت، جعل أحد المأمومين في أحد المساجد جلس مع الإمام جلسة التشهُّد، وكان المسجد الآخر يقرأ الفاتحة، فلما انتهى الإمام الآخر من قراءة الفاتحة قال المأموم المصلِّي في المسجد: "آمين" بصوت جهوري. ومع أن هذا يعني أن هذا المأموم كان مشغولاً عن الصلاة، وهو فيها، إلا أن هذا يبرز مدى التداخُل الذي تحدثه مكبِّرات الصوت فيما بينها، ويبرز كذلك مدى قرب المساجد بعضها من بعض، وهناك مطالبات ممن يعمرون هذه المساجد، من أهل الخير، إلى أن تتحوَّل إلى مساجدهم هذه إلى مساجد للجمعة، بحيث قد تتداخل الخُطب، كما تداخلت الصلوات..[1]

---

(١) انظر البحث الشرعي المستفيض لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن =

أما في المدن الصغيرة والقرى والأرياف والطرق فإنها تحتاج إلى عناية أكثر مما هي عليه الآن، لاسيَّما في عمارة المساجد، إذ إن بعض مساجدها متواضعة في مساحتها، وخدماتها، وفرشها، وإنارتها، وتهويتها، بل ونظافتها وصيانتها. ولست ألمح هنا، من قريب أو بعيد، إلى تقصير متعمَّد أو غير متعمَّد من أي جهة من الجهات، لاسيَّما الجهة المسؤولة عن عمارة المساجد، إذ إنها تقوم بجهود محمودة وواضحة، لا يملك مثلي التشكيك في مدى ما تنجزه. ولكني في هذه الوقفة أذكِّر أهل الخير الذين يرغبون في الاستمرار في عمارة المساجد أن يتَّجهوا إلى تلك الأماكن التي تعاني من هذه اللفتات الطيبة، من حيث عدم توجُّهها إلى تلك الأماكن.

لقد عرض عليَّ أحد الزملاء مشروع إقامة مسجد جامع على الطريق العام، الذي يربط بين منطقتين من مناطق المملكة. ولا يكلِّف المشروع أكثر من ربع مليون ريال (٢٥٠,٠٠٠) ريال، بما في ذلك فرش الجامع وإنارته وتهويته، على مساحة لا تزيد عن مئتين وخمسين مترًا مربعًا (٢٥٠م٢)، هي كافية لأهل هذه البلدة، ولمن يمرُّ عليهم، للصلاة في المسجد، وذكر لي أنه لا يوجد في هذه البلدة جامع إلا في الموقع القديم، الذي كان يقطن فيه السكان، ثم نزحوا عنه، بحكم التسهيلات العمرانية التي قدَّمها صندوق

=

عبدالرحمن الأطرم حول موضوع مكبِّرات الصوت في المساجد، المنشور في صحيفة الجزيرة في ١٤١٧/٩/١هـ.

التنمية العقاري، فظهرت مساكن حديثة في السهل، بعد أن كانت المنازل في الجبال.

هذا ما قاد إلى إثارة هذه الوقفة. ليست تعمُّدًا إلى تعميم حالة واحدة، ولكنها حالات تستحق من أهل الخير النظر في التوجُّه إلى هذه الأماكن، بعد أن تشبَّعت غالب المدن الكبرى بالمساجد، ولله الحمد والمنة. وإذا كان هذا قد يفهم على أنه سلبية فإنه ينظر إليه من وجه آخر على أنه جهد إيجابي في انتشار المساجد في كل مربَّع من المربَّعات السكانية، ولكنها إيجابية ينبغي ألا تكون على حساب الحاجة القائمة في بعض القرى والأرياف، التي تشكِّل مربَّعًا واحدًا من مربعات المدن.

مهما يكن من أمر فإن كثرة بناء المساجد وقيامها مؤشِّر طيِّب، ينبئ عن عمارتها المعنوية بالصلاة والذكر وقراءة القرآن الكريم وحفظه وإلقاء الدروس، وتحقيق رسالة المسجد، في تأثيره على المجتمع.

* * *

الوقفة السادسة

المُصَلَّيات

المصلَّيات هي أماكن للصلاة غير دائمة. ولذا فإن لها أحكامًا غير أحكام المسجد. وعادة ما تكون المصلَّيات في أماكن لا تتوفر فيها مساجد دائمة. ولا تكون مجهَّزة تجهيزًا تامًا، كما هي الحال في المساجد. ولدينا في هذه البلاد الطاهرة حرص مستمرٌّ على أداء الصلوات جماعةً، في أوقاتها، وفي أي مكان. ولا ينتظر قيام المساجد في كل مكان، لاسيَّما أن الأرض قد جُعلت للمسلمين مسجدًا وطهورًا.[1]

لدينا في هذه البلاد الطاهرة – كذلك – منشآت حديثة وكبيرة، وتترجم نهضةً عمرانيةً طيبة. ولأن هذه المنشآت العمرانية كبيرة فإن المسجد إذا أقيم فيها يكون في زاوية من زوايا هذه المنشأة مما يرتاده العامَّة، كالمستشفيات، أو يكثر فيها الموظفون، كالوزارات والمصالح الحكومية الأخرى، وغيرها، تجد أن الناس يبحثون عن فراغ داخل المنشأة، ويفرشون فيه فراشًا

---

(١) رواه البخاري في كتاب التيمُّم، باب قول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾. حديث رقم ٣٢٣، ورواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٨١٠.

يصلُّون عليه، وينثرون نعالهم في مداخل هذه الفراغات. وعادة ما تكون الفرشة متواضعة، لا تتماشى مع رونق المبنى وجماله وخضرته وتصميمه البديع. وهذا الشكل غير الملائم لهذه الفراغات يسيء إلى أمرين:

الأمر الأول: الإساءة إلى هذه الشعيرة اللازمة، التي نقوم بها خمس مرَّات في اليوم، فإذا كان الأمر كذلك فالأحرى بهذه المنشآت أن تخصِّص أماكنَ واضحةً ونظيفة، احترامًا للشعيرة التي تؤدَّى فيها، إلى درجة نظافة المفارش وتخصيص "أدراج" للنعال، وتنظيف هذه الأماكن. ويكون هذا من صُلب تصميم المبنى نفسه.

الأمر الثاني: الإساءة إلى المبنى الأنيق نفسه، لاسيَّما أن الذين يهمهم الرونق قد لا يرحِّبون بهذا التصرُّف من المصلِّين، ويرغبون في أن يذهب الجميع إلى المسجد المخصَّص للصلاة. وهو مصمَّم حقًا ضمن تصميم المبنى نفسه، وفي مستواه.، إلا أنه بعيد المسافة.

المؤمَّل أن يُنظر إلى الأمر الأول نظرة جادَّة، من لدن الجهات التي تضع، أو تسمح بوضع تصميمات للمنشآت الكبرى، التي يطرقها العامَّة، أو يكثر بها العاملون، بما في ذلك مراعاة السلامة في المنشآت الصناعية، التي يكثر فيها العاملون. وبالتالي فإن النظر إلى الأمر الأول، وهو وجود مصلَّيات لائقة داخل هذه المنشآت سينعكس إيجابيًا على الأمر الثاني، بحيث لا يقل تصميمه عن أي قسم أو فرع من أقسام هذه المنشأة. وليس من اللائق أن تستغلَّ الممرَّات أو الفراغات المقصودة للتهوية والإضاءة أماكنَ للصلاة. وأثق أن هذا سيكون مكان تقدير المصمِّمين والمنفِّذين، إذا ما

أدركوا هاتين الإساءتين اللتين تحصلان، بسبب عدم تخصيص أماكن مناسبة للصلاة فيها، في الأوقات التي يكون فيها كثرة من المصلين.

يكفي أن نتصوَّر واحدًا من المستشفيات الكبرى، أوقات زيارة المرضى، لندرك هذه الكثرة التي تستحقُّ هذه الدعوة، أو نتصوَّر إدارة، حكومية أو أهلية، يفد إليها كثير من المراجعين، لندرك، أيضًا، أن المسألة ليست وقفةً واحدة في وقت واحد، ولكنها وقفاتٌ في أوقات متعدِّدة. والأمل أن يوفَّق المصمِّمون المسؤولون عن ذلك إلى ذلك.

* * *

الوقفة السابعة:

الصلاة في السفر

السفر مشقَّة، وسيظل مشقة، مهما تطوَّرت تقنية النقل، وقرُبت المسافات، ولذا تظل أحكام السفر في الإسلام ثابتةً، مهما كانت حال السفر، وهي أحكام أراد الشارع منها التيسير على العباد، في قصر الصلاة وجمعها والإفطار للصائم، وغيرها من أحكام العبادات في السفر. ومع هذا، ومع إمكانية تأجيل الصلاة، مع جمعها مع العشاء، مثلاً، أو العصر مثلاً، ترى الناس يقفون على قارعة الطريق، ويتوضأون، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويصلُّون الفريضة، مع أنهم في سفر نفسيًا وحسيًا، إلا أنهم ترجَّلوا عن رواحلهم، وأقاموا الصلاة.

من الجميل في السفر، حالَ السفر البرِّي والجوِّي، التعلُّق بالله تعالى بدعاء السفر، والتذكير فيه مع كل مرحلة من مراحل السفر، ففي الطائرات السعودية، وبعض الخطوط الجوية الأخرى، في رحلاتها الداخلية والخارجية، يُقرأ دعاء السفر المأثور عن المصطفى ﷺ، توكيدًا على أن السفر، حتَّى في أسرع الوسائل اليوم، يظل قطعةً من عذاب، محفوفًا بالمخاطر، وإن اختلفت هذه المخاطر، بحسب الزمان والمكان.

ترى السيارات الواحدة تلو الأخرى، استأذنت من الطريق، ومن السرعة، ومن التطلُّع إلى الوصول المبكر، ومن التجاوز من

اليسار أو اليمين، وقبعت تنتظر الناس يصلُّون، على يمين الطريق القادم والذاهب. وهذا منظر جميل، إذا ما تأمله المارُّ، الذي وطَّن النفس على الصلاة في البلد، بعدما يصل – بإذن الله – سالمًا معافى، مما يحدوه إلى أن يتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقف مع الواقفين، ويصلِّي الفرضين قصرًا وجمعًا، يرتاح بهما، ثم ينطلق مرة أخرى يمخُر عباب الصحراء، وهو كلُّه راحةٌ تامة، بعد أن أدَّى ما عليه، وقدَّم حقَّ الله تعالى على حقوقه هو وحقوق الآخرين، هو منظر جميل حقًا.

هو منظر جميل للمارِّين المسافرين من غير المسلمين، إذ يتأمَّلون هذا الموقف غير المألوف في ثقافتهم، وفي أدائهم لعباداتهم. هم يرون الناس أهملوا كل شيء، في وقت يحرص المرء فيه على كل شيء، وتوجَّهوا إلى الله تعالى. وإن هذا المنظر من المناظر المؤثِّرة على غير المسلمين الذين يعقلون هذا المنظر، فيضيف إليهم قناعة أخرى من القناعات، التي تؤدِّي في النهاية إلى موقف إيجابي، قد يصل إلى الهداية بإذن الله تعالى. وأظن أن تأثير هذا المنظر على غير المسلمين أقوى منه على المسلمين أنفسهم. وإن كان على المسلمين قويًا، ذلك أنه ربَّما اعتاد المسلمون هذا المنظر، ووجدوه مألوفًا. وهو مفهوم لديهم في أناس يؤدُّون فرضًا عليهم، آثروا التقديم فيه على التأخير. أما أثره على غير المسلمين فيأتي من تخلِّي المسافر عن الطريق بعد أن يستوي عليه، لا لحاجة ماسَّة له تعيقه عن السير، ولكن لحاجة له توثِّق علاقته مع الله تعالى.

أتابع الدعوات إلى إقامة مصلَّيات على جوانب الطريق، تكون فيها خدمات الوضوء وأماكن الصلاة للنساء والرجال. وأقف مع هذه الدعوات إذا ما كانت هذه المصلَّيات ومنافعها بسيطة جدًا، وواضحة للجميع، لاسيَّما المارَّة من المسافرين، وكانت مكشوفةَ الجوانب وإن كانت مسقوفةً، لتقي من الشمس في النهار، لأني أريد أن أبقي على هذا المنظر المؤثر الذي عشته مرَّات عديدة.

على أي حال، فمنظر المساجد والمصلَّيات على الطريق السريع هو، بحدِّ ذاته، منظر يوحي بأن الدنيا لا تزال بخير، وستظل بخير، وأن الناس حريصون على الاستمرار في علاقتهم مع الله تعالى في السفر والحضر، الأمر الذي يبعث على الاطمئنان والأمان من الجوع ومن الخوف.

على الطرق الداخلية السريعة تجد عبارات متعدِّدة، تذكِّر بالتعلُّق بالله تعالى. وهي طيبة ومطمئنة. والملحوظ على هذه اللوحات توحيدها في الحجّم، غالبًا، وفي الخط وفي اللون البنِّي المتعارف عليه في الخطوط السريعة على أنه إرشادي، لأمرٍ غير متعلِّق مباشرة بالطرق، وغيرها. والتوحيد هذا جيد من نواحٍ عدَّة، منها أنها مقصودة رسميًا، ومقرَّة من الجهات المعنية، إلى درجة الاضطلاع بها والمسؤولية عنها عن طريق وزارة النقل.

ومنها الحدُّ من الجهود الفردية المجتهدة، التي يسعى إليها بعض فاعلي الخير مأجورين، ولكنهم لن يتمكَّنوا من مراعاة الشكل والحجم والخطِّ واللون، هذا بالإضافة إلى الوقوع في أخطاء لغوية ونحوية، لا ينبغي الوقوع فيها، مثل إثبات ياء المنقوص

وألفه مع فعل الأمر من صلى يصلى، ونسي ينسى مع النهي في: "اللهم صلِّ على محمَّد" و "لا تنسَ ذكر الله"، ممَّا قد يوحي بضعف الحصيلة النحوية الإعرابية عند بعض ممن يصيغون العبارات، سواء هذه العبارات أم غيرها، مما يؤذي العين أن تراه، ويؤرِّق الأذن أن تسمعه. ومع الرغبة في المرونة اللغوية والنحوية، إلا أن المرونة في اللغة لا تعني بأي حال التسيُّب اللغوي، وإغفال متطلبات القواعد العربية. وقد يصل الأمر إلى تعليق آثار غير ثابتة، مبالغة في هذا النهج الجميل في انطلاقته، إلا أن الحذر فيه مطلوب.

مع إبراز هذه الملحوظة اللغوية المهمة عندي، تظل فكرة اللوحات المطمئنة رائدة وجيِّدة. والأمل في الحرص عليها ووضعها بطريقة مناسبة على الوضع الذي هي عليه الآن في بعض الطرق السريعة داخل المملكة. ومثل هذه الإضافات الطيبة دلائل شاهدة وقوية على سريان هذه البلاد نحو التميُّز والخصوصية، في أمر مفتوح للجميع، وبالإمكان تطبيقه في أكثر من بلد، وليس هناك ما يمنع من مراعاتها، إلا أن التميُّز والخصوصية هي التي تراعيه.

* * *